حوار ركب تائه

بقلم أبو أنس

برد الصحراء القارص ينفذ إلى عظامهم ، وقد تحلقوا في دائرة تحت تلٍّ رملي ملتصقين إلى بعض بحثاً عن قليل من الدفء ، وحدّق كبيرهم في الأفق وأجال ناظريه في القبة الزرقاء لحظات وعاد بناظريه محدقاً في الأرض .. ومرّت فترة صمت شعر الجميع وكأنها ساعات طويلة .. إنّ ما يدور في نفوسهم يكاد يقرؤه كلٌ في عين صاحبه .. وجاء صوت الكبير وأنصت الآخران :

١- إنّ مشكلتنا ليست في هذا البرد وهذه الوحشة ولكننا قد تهنا الطريق أيضاً ، لقد كتمت عنكم ذلك منذ مدة خوفاً من وقع ذلك عليكم ، وأحياناً كنت على غير يقين من ذلك فقد كنت أمنّي النفس بأنني أسلك الطريق الصحيح وإنّ تشابه المسالك في هذه البقاع هذا ما أوهمني بالضياع .. غير أنني بعد أن قطعنا ذلك الوادي تأكدت أننا نضرب في أرضٍ لا عهد لي بها من قبل ، وأن كل ما قطعناه بعد ذلك كان جهداً ضائعاً وضرباً في مجهول .

٢- هوّن عليك يا أخي ودعنا نبحث الأمر في هدوء . صحيح أنّك دليلنا في هذه المرحلة ولكن ذلك لا يعفينا من مسؤولية ما حصل .. إننا لا نعرف الطريق ولكن البديهة الحاضرة والعقل الفطن المدرك لما يجري حوله بإمكانه أن يلحظ بوادر ومؤشرات الخطر منذ بدايته فيتساءل دافعاً الآخرين إلى التأكد من مسارهم ، لقد كنا نحن عوناً لك على أن تضيعنا لأننا كنا معك أجساداً تتحرك وراءك .. إنك تفوقنا خبرة ولكنني أستطيع أن أفهم الآن كيف كنت تبدو في بعض الأحيان غريب الأطوار تتصرف غيرَ تصرف الخبير بالطريق .. لو أنني سألت عندها لكنت دفعتك إلى مراجعة حساباتك ، ربما خففت من شعورك حينها بتلك الثقة بنفسك التي دفعتك إلى حدّ إهمال الاحتياط فكان ما كان ..

٣- إنّني لفي دهشة ليس مما حلَّ بنا ولكن من هذا التغير في طباعكما ، يدهشني هذا الهدوء الغريب عليك وأنت دليلنا وكنت طوال الرحلة -أعني إلى هذه النقطة- مثال الاستبداد بالرأي ، وأعجب من زميلنا الآخر كيف صوّرنا ساكتين طوال السير .. عجباً ألم نكد نتشاجر بعد مرورنا بذلك الشيخ الوقور الذي نصحنا مراراً بالتريث في اختيار هذا الطريق ، وكيف أنك لم تعيره انتباهاً بل لقد انتهرته و لم توقر شيبه و وقاره ، لقد كنت طوال الوقت تردد إنك خبير بالمسالك وأنك ابن الصحراء وشارب حليب النياق .. إلخ .. إنني لا أصدق سمعي وأنا أسمع زميلنا يلغي كل ما دار وكأنه يحاول أن يقول إنّ المصيبة يجب أن تنسينا تفاصيل وأسباب ما جرى إلاّ أنني أرى أنّ الخلل وإن كان كبيراً إلاّ أن الحق لا يمكن أن يُغفل ، إنني حتى لو علمت بأننا جميعاً الآن مشرفون على الموت فإنني لا يجب أن أنسى أنّ

هناك فرقاً بين تحديد المسؤوليات وإحقاق الحق كما هو ، وبين مواجهة واقع معين يقتضي الظرف مواجهته ، فرق كبير بين تزييف الأحداث وبين تأجيل ذكرها .

المهم الآن أنّ حالنا ينذر بالخطر ، سرنا معك على أنك خبير بهذه الديار ، وها نحن في بيداء قاحلة .. لقد كان من عيوبك أيضاً ذلك الغرور بالنفس الذي دفعك إلى منح أغلب زادنا إلى من كنا نلاقي بالطريق، ثقة منك بأننا على أبواب الوصول .. لو أنك احتفظت لنا على الأقل بصندوق الكبريت لكنّا أوقدنا ناراً نصطلي عليها وتدلّ علينا من بعيد .. يا ألله ما جدوى ذلك الآن ! .. إنّني كلما فكرت بما مرّ بنا ازددت حمقاً وغضبا .. وقد يدفعني ذلك إلى ارتكاب شيء ما ، فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. لماذا لا نلجأ جميعاً الآن إلى الله متوجهين بقلوب خاشعة أن يمدنا بعونه وأن نقضي هذه الليلة ..